19980725-0001-2
ملحق النهار

# المخطوفون في شريط بهيج حجيج
# كوابيس الحضور والغياب الاليمة

محمد أبي سمرا

من نافل القول إن اللبنانيين، وغيرهم من المشاركين الاقليميين في الحرب التي دارت فصولها في بلدهم، قد طووا صفحات التخاطب بلغة القتل والخطف والتهجير الجماعي والتدمير والنهب، ليستأنفوا حروبهم بأسلوب ولغة تتيحهما الظروف الراهنة.

ومخطوفو الحرب من تلك الصفحات الكثيرة والثقيلة التي طُويت فصولاً وامست شأناً خاصاً يُعاش كمأساة مكتومة في بيوت الاهل والعائلات التي فقدتهم في لحظة مفاجئة. هذا بعدما فشلت كل محاولات ذوي المخطوفين والجهات التي آزرتهم في تحويل قضيتهم قضية عامة. وقد يكون هذا الفشل وجهاً من وجوه انطواء صفحة الحرب على النحو الذي انطوت عليه، باعتبارها، اي الحرب، امراً قدرياً انساق اليه صانعوه والمشاركون فيه انسياق القطعان الى المسالخ. اما من يرفع الصوت مقلّباً صفحات الحرب باعتبارها من افعال الجماعات اللبنانية ونظرائها الاقليميين، مشيراً الى بعض وجوه تشكّلها في ثنايا الاجتماع التاريخي لمجتمعاتنا العربية الاسلامية واقلياتها، وفي ثقافة هذه المجتمعات وهوياتها، فغالباً ما يوصم بالمروق وبالخروج على سلطان الامة والجماعة والهويات الجمعية. هذا فيما يطيب لثقافات الجماعات ولمثقفيها "العضويين" التبرؤ من تبعات المسؤولية عن الحرب باعتبارها من صنيع الجماعة الاخرى المعادية وافعالها فحسب. اما "نحن" فلسنا الا ضحايا ومناضلين وشهداء واصحاب حق لا يرقى اليه السؤال والشك، فيما الآخر ضالّ ومعتد وسالب حق وجلّاد ودخيل وعميل لعدو الامة الخارجي.

وفشل تحويل قضية المخطوفين قضية عامة يخص المجتمع كله، انما هو فشل لكل ما هو غير اهلي، ولا يقوم على روابط الارحام والدم. لذا لن نجد احداً سوى ذوي المخطوفين (آباؤهم، امهاتهم، زوجاتهم، ابناؤهم...) يتكلم عنهم في شريط بهيج حجيج السينمائي التسجيلي "مخطوفون" الذي عرض في صالة "مسرح مونو" مساء الجمعة ١٧ تموز. هذا رغم ان عدد المخطوفين يتجاوز خمسة عشر الف شخص، على ما ورد في احصاءات اشير اليها في مطلع الشريط السينمائي الذي وضع مخرجه الكاميرا ثابتة في منازل ذوي بعض المخطوفين، واستنطق وقع غيابهم على افراد من أسرهم. فاذا بهذا الغياب – الانتظار، فيما هو يكثّف حضور المخطوفين في ذاكرة اهلهم ومخيلاتهم الخاصة، يمحور حياة هؤلاء الاهل الماضية والحاضرة والمقبلة كلها، على مخطوفيهم المجهولي المصير.

والحق ان حجيج في شريطه التسجيلي (٥١ دقيقة)، ثبّت عدسة الكاميرا قبالة وجوه ذوي المخطوفين، ووجّه الى كل منهم الاسئلة نفسها (محذوفة من الشريط)، وتركهم يبدأون كلامهم عن لحظات حدوث عملية الخطف نفسها. فاذا بها حصلت في النصف الاول من الثمانينات، في حالة معظم المستجوبين. وينتقل المستجوبون الى الكلام عما قاموا به من استقصاءات واتصالات لمعرفة مصير مخطوفيهم وسعياً الى تحريرهم. هذا قبل ان يتحدّثوا تباعاً عن عذاباتهم اليومية الناجمة عن مشاعر اليأس والامل ازاء مصير مخطوفيهم الغامض. فاذا المخطوف، في اثناء غيابه، يحيا حياة ثانية بين ذويه الذين يعجزون عن تسميتها. فالمخطوف الغائب

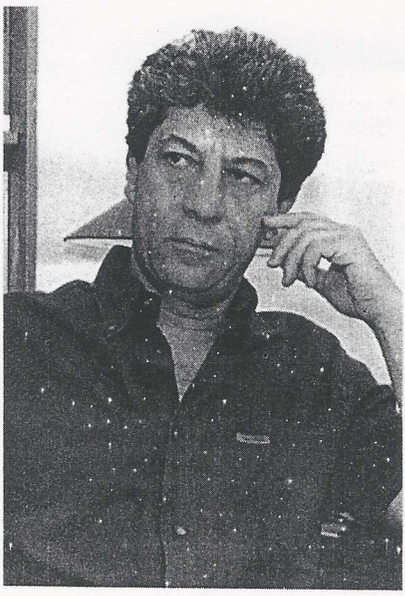

المخرج السينمائي بهيج حجيج.

والمجهول المصير، لا يُنقص انقضاء الايام على غيابه من حضوره، بل انه يزيد هذا الحضور ويجعله مصدراً للالم ومشاعر الذنب. فيتساءل بعض ذوي المخطوفين عن الحال التي يعيش عليها مخطوفهم، ويلومون انفسهم ازاء متابعتهم حياتهم العادية، فيما يتعذّب المخطوف في احتجازه. كأنما اهالي المخطوفين يشعرون انهم يخونون مخطوفهم الذي حسبوا، في اعقاب حادثة خطفه، ان الحياة والعالم كله لن يظلاّ على حالهما بعد الحادثة، فاذا بمنطق العيش والوجود يكذب حسبانهم. وهذا وجه من وجوه الحداد الذي يعيشه ذوو الموتى على امواتهم. وهو الحداد الذي يمكن اهل الميت من استقبال الحياة، حياتهم، في ظل غياب فقيدهم الذي يسلّمون تسليماً قدرياً برحيله عن هذه الدنيا، فيسليهم الزمن ويكسبهم قوة على تحمّل ذلك الغياب. غير ان المصير الغامض للمخطوف يجعل من الحداد حالاً دائمة لا نهاية لها. فتظل ثياب الغائب واشياؤه وصوره في اماكنها في انتظار عودة صاحبها. ذلك لان اهل هذا الغائب وذويه لا يستطيعون التسليم بالفقد الابدي لغائبهم المجهول المصير. هذا فيما اشياء الميت وثيابه ترفع من اماكنها وتوارى مواراة الميت نفسه.

ويحتجّ اهالي المخطوفين جميعاً على القرار الاداري الذي اعتبر غائبيهم بمثابة مفقودين امواتاً في الحرب. وذلك لتسهيل المعاملات والشؤون الادارية المعلقة بعد غياب المخطوفين. فالأهالي لا يصدقون ان ذويهم قد طوى الزمن صفحة حياتهم، مثلما طُويت صفحات الحرب، كما انهم يصابون بالذعر والرعب حين يُقال لهم ان عليكم اماتة غائبيكم. فالله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يحق لاحد على هذه البسيطة اصدار وثيقة موت شخص مفقود او غائب، لم يتثبّت احد من موته. وما قرار الادارة اللبنانية اماتة هؤلاء الغائبين المجهولي المصير الا صورة من صور اختتام فصول الحرب في لبنان وطيّ صفحاتها، وكأنها قدر او من صنيع اشباح. فالحروب لا تنتهي ولن تنتهي الا اذا اعترف البشر بمسؤولياتهم عن حدوثها، وعرف الجميع مَن قتل ومَن خطف ودمّر وهجّر... الخ، لا للاقتصاص منه، بل فقط للخروج من كوابيس الحرب التي يعيشها اهالي المخطوفين، وبيّن شريط بهيج حجيج انها دمّرت وجهاً من حياتهم ■